



الاكتئاب الوجودي
والأزمات النفسية
بعد
الربيع العربي

إعداد
دعاء رجب



تمهيد:

للأزمات والتغيرات المجتمعية أثرها الكبير على نفسية الإنسان، فإن لم تكن هناك أرض صلبة يتمكن الإنسان من الوقوف عليها عند حدوث الأزمات والاضطرابات قد يؤثر ذلك على صحته النفسية، ومن أكثر الأمور القادرة على خلق أرض صلبة يتكئ عليها الفرد في مواجهة الأزمات وجود معنى أو سبب لحياته يجعله قادرًا على التغلب على المعاناة، فعندما يفقد الإنسان المعنى أو الغاية من وجوده؛ يصير المشهد ضبابيًا ويفقد الدافع للمضي قُدماً وتجاوز الألم.

وينتج عن فقدان المعنى إحباط وجودي، فعندما يفشل الإنسان في إيجاد معنى وجودي لحياته؛ يصاب بالإحباط الوجودي، ويُعرّف عالم النفس النمساوي «فرانكل» المعنى الوجودي: بأنه «قدرة الفرد على إيجاد قيمة ومعنى للحياة، بحيث يجعل الحياة جديرة بالعيش، ويحدث نتيجة لإشباع دافعه الأساسي المتمثل بإرادة المعنى، فعند فشل الإنسان في إيجاد القيمة أو الغاية التي تجعل حياته جديرة بأن تعاش فإنه يكون قد وقع تحت وطأة الإحباط الوجودي»، وفي نظر «فرانكل» يُعدُّ الإحباط الوجودي عصابةً معنوي المنشأ؛ بمعنى أنه ليس اضطرابًا جسديًا أو نفسيًا سريريًا بل اضطرابًا متعلقًا بالعقل والروح الإنسانية.

ومع انتشار النظرة المادية للإنسان والتي تعمل على تهميش الجانب المعنوي لدى الإنسان، بالإضافة إلى الاضطرابات والتغيرات المجتمعية؛ فإن الجانب المعنوي والروحي للإنسان قد يتعرض إلى الإصابة بالخلل، ونظرًا لأن الجانب الروحي هو أكثر ما يميز الإنسان عن باقي الكائنات؛ فإن آثار عطفه تظهر جلية وواضحة في حياة الأفراد والشعوب، ومع انتشار مظاهر متعددة تنبئ عن الاضطراب النفسي والمعنوي لدى الإنسان مثل الانتحار والإلحاد؛ كان لزامًا علينا أن نبحث في أهم مسببات هذا الاضطراب النفسي المسمى بـ«الإحباط الوجودي»، وننظر في ماهيته بتفصيل أكثر، ونتأمل في التغيرات المجتمعية ونرى ما إذا كانت أثرت في وجود هذا الإحباط وانتشاره أم لا.

وإن كان للفراشات أثر في صنع الأعاصير؛ فالثورة في المجتمعات تأثيرات ضخمة في إعادة تشكيلها، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية، ولو دققنا النظر في التغيرات النفسية التي تحدثها الثورات في المجتمعات فمن المؤكد أننا سنجد كثيرًا من التغيرات، فاندلاع الثورة في حد ذاته راجع إلى عوامل واضطرابات نفسية في المجتمع، والتغيرات السياسية والاجتماعية التي تحدث خلال الثورات أو بعدها تؤثر في البُعد النفسي للأفراد والشعوب، وإن كانت تلك التغيرات تؤدي إلى الأزمات والحروب الأهلية والعنف وفقدان الحريات؛ فإن ذلك يؤثر سلبيًا على الصحة النفسية للشعوب والأفراد.

كل هذا يضعنا أمام السؤال موضوع الدراسة هنا: هل أدى فشل ثورات الربيع العربي إلى إصابة الشعوب بالإحباط الوجودي؟

في محاولة للإجابة عن هذا السؤال سنقسم الدراسة إلى المحاور الآتية:

أولاً: الإحباط الوجودي:

• التعريف والماهية



• الاكتئاب الوجودي نتيجةً للمعاناة والصدمات

• علاقة الإحباط الوجودي بمعنى الحياة

• علاقة الإحباط الوجودي بالذكاء الوجودي

• علاقة الإحباط الوجودي بتحمل المسؤولية

ثانيًا: النتائج النفسية لثورات الربيع العربي:

• الاغتراب النفسي

• الانتحار

• إلحاد.

أولاً: الإحباط الوجودي:

• التعريف والماهية:

كما أن لكل علة معلول؛ فلكل شيء غاية، ربما نعد الحياة أمرًا عصيًا على الفهم في بعض الأحيان، لكن هذا لا يمنع وجود فكرة أن ما يجعل الحياة محتملة هو وجود معنى لها أو غاية منها، أن لوجودنا بها سببًا، وربما سنذكر لفظ «المعنى» عدة مرات في هذه الدراسة ليتجلى في صيغته الأهم «ما المعنى من حياتنا؟» ورغم بساطة السؤال للوهلة الأولى إلا أن الأمور ليست كما تبدو في بعض الأحيان، فالإحباط الوجودي متعلق في الأساس بانعدام وجود معنى للحياة أو ضياعه، ومن هنا نبدأ التعرف على ماهية الإحباط الوجودي.

عندما تتعرض إرادة المعنى للإحباط والفشل يصاب الإنسان بالإحباط الوجودي، هكذا يُعرّف عالم النفس «فرانكل» الإحباط الوجودي، بأنه حالة يمر بها الشخص عندما يفشل بإرادته في إيجاد معنى لحياته، فالمعنى في حياة الإنسان يقرره الإنسان بإرادته وسعيه إلى إيجاده، وهو مسئول عن البحث عن معنى وغاية من حياته، وعندما يفشل في ذلك يتعرض للإحباط أو الاكتئاب الوجودي، وسنوضح ماهية «إرادة المعنى» بتفصيل أكثر في جزء لاحق، هنا وجدنا أن فشل الإنسان في إيجاد غاية من حياته وما يُعاشه من آلام وآمال وتطلعات وخيبات؛ أدى به إلى حالة من الإحباط.

أما الشق الآخر من المصطلح، وهو «الوجودي» فيتعلق عند «فرانكل» بثلاثة أشياء، هي: الوجود ذاته؛ أي أسلوب الوجود المميز للإنسان؛ حيث إن وجود الإنسان لا يشتمل على وجود جسدي أو وجودي جسدي وانفعالي فحسب، بل يشتمل على وجود جسدي وانفعالي وروحي أو عقلي، وهو ما يجعل الإنسان مميزًا عن غيره من الكائنات، كما يشير اللفظ أيضًا إلى معنى الوجود الذي يستمد منه الإنسان قيمة وجوده وهدفًا له، ويشير أيضًا إلى السعي للوصول لذلك المعنى ويتضمن استخدام إرادته للوصول لمعناه^١، وهكذا نرى أن الإحباط

^١ فيكتور فرانكل: الإنسان يبحث عن المعنى مقدمة في العلاج بالمعنى التسامي بالنفس، ترجمة: طلعت منصور، الكويت، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ١٣٥.



الوجودي لدى «فرانكل» مرتبط بمفهوم إيجاد المعنى من حياتنا بإرادة حرة، وأنا نتحمل مسئولية إيجاد ذلك المعنى والسعي للتوصل إليه، وعندما نفشل في أي جزء مما سبق؛ يوقعنا هذا في براثن الإحباط الوجودي.

في البداية نتعرض لمفهوم الإحباط الوجودي من وجهة نظر «فرانكل»، فمن وجهة نظر «فرانكل» يُعد الإحباط الوجودي عصاباً^٢ معنوي المنشأ، وليس عصاباً جسدياً أو نفسي المنشأ، وهذا الجانب هو ما يختص «فرانكل» بتسليط الضوء عليه في العلاج بالمعنى الذي ابتكره، فالأعصاب الأكثر أهمية بالنسبة له هي الأعصاب معنوية المنشأ التي تنتج عن إحباط إرادة المعنى^٣، والعصاب معنوي المنشأ ينتج عن الصراعات المعنوية الأخلاقية، ويقصد بالصراعات الأخلاقية: المشاكل الروحية، ومن بين تلك المشكلات «الإحباط الوجودي» الذي يلعب دوراً كبيراً في الصراعات في الجانب المعنوي لدى الإنسان وليس الجانب الانفعالي أو الجسدي، ونجد هنا الفرق واضحاً بين العصاب النفسي والعصاب المعنوي، فكما يقول «فرانكل» عن العصاب المعنوي: «لا يتولد العصاب معنوي المنشأ من الصراعات بين الحوافز والغرائز، وإنما يتولد بالأحرى من الصراعات بين القيم المختلفة»، فهكذا هو الإحباط الوجودي يتكون من صراعات بين القيم المختلفة لدى الفرد على حد قول «فرانكل»، وتلك الصراعات تؤدي كما ذكرنا سابقاً إلى فقدان المرء المعنى من حياته، وسنتعرض بشيء من التفاصيل لمفهوم القيم لدى «فرانكل» عندما نتحدث عن علاقة الإحباط الوجودي بالمعنى.

يذكر «فرانكل» أن الإحباط الوجودي يظهر في حالتين:

الأولى؛ عندما تعاق إرادة المعنى لدى الشخص نتيجةً للضغوط النفسية الكبيرة التي قد يتعرض لها الفرد، مثل: الكوارث والحروب والأزمات والصدمات، وهو ما أيدته نتائج دراسات «نيو كامب» و«هارلو» (١٩٨٢) اللذين توصلا إلى أن أحداث الحياة الضاغطة والصدمات الكبرى قد تؤدي إلى الإحباط الوجودي.

أما الحالة الثانية؛ فهي عندما تتعلق إرادة المعنى للإحباط بسبب رتابة البيئة المحيطة بالإنسان؛ إذ يفقد الإنسان الحماس لإنجاز أي عمل ولا يبدو لديه هدف واضح في الحياة يريد تحقيقه، بل يزداد شعوره بالسأم والملل والعزلة بسبب انتقاله من يوم إلى يوم في نفس الروتين والملل.

أما حالة الإحباط التي تتعلق بالصدمات الكبرى والكوارث والمعاناة فهي تؤدي إلى حالة من «الاكتئاب الوجودي»، أما حالة الإحباط الناتجة عن السأم والملل والرتابة فهي تظهر في صورة «الفراغ الوجودي».

^٢ عصاب لدى معظم علماء النفس وكما عرفها «أحمد عكاشة» دكتور الطب النفسي فقال: نعني بالشخص العصابي: أنه هو ذلك الشخص الذي صار بسبب صراعاته الداخلية وصراعاته مع المجتمع يعاني من أمراض نفسية متعددة، تجعله غير قادر على الاستمرار والإنتاج كما ينبغي، ونجد هنا أن مفهوم العصاب عند «فرانكل» لا يقتصر على نفس المفهوم الذي عند معظم علماء النفس، بل هو أشمل، فلدى «فرانكل» يقسمه إلى جسدي ونفسي ومعنوي.

^٣ فيكتور فرانكل: إرادة المعنى.. أسس وتطبيقات العلاج بالمعنى، ترجمة: إيمان فوزي، القاهرة، دار زهراء الشروق، ١٩٩٧، ص ٣٥.

^٤ فيكتور فرانكل: الإنسان يبحث عن المعنى.. مقدمة في العلاج بالمعنى التسامي بالنفس، مرجع سابق، ص ١٣٦.

^٥ الأعرجي في دراسة محمد عباس محمد: «الإحباط الوجودي وعلاقته بالاتهامات المضادة للذات لدى طلبة الجامعة»، مركز البحوث التربوية والنفسية، بغداد، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد ٥٥، ٢٠١٧، ص ٤٢٨.



• الاكتئاب الوجودي نتيجةً للمعاناة والصدمات:

الإحباط الوجودي: هو شعور نفسي ينبت داخل الإنسان نتيجة لفقدانه المعنى، وسقوط المعايير القيمية لديه، والذي قد يكون بسبب بعض الأزمات والنكبات التي تحدث معه في واقعه الذي يعيشه، ويُترجم الشعور بالإحباط الوجودي واقعياً خصوصاً بعد الصدمات والحروب في صورته الأبرز وهي «فخ الاكتئاب الوجودي».

علينا التمييز بدايةً بين الاكتئاب المرضي الناتج عن بعض التغيرات الهرمونية التي تحدث بسبب خلل في المخ، وبين نوع آخر من الاكتئاب الوجودي الاستجابي الناشئ كردة فعل للهزيمة والخسارة، والحقيقة أن أعراض الاكتئاب في كلتا الحالتين واحدة في كتب الطب النفسي، وتتمثل الأعراض في تغيرات معرفية وسلوكية وجسدية وانفعالية لدى الشخص، وتتضمن الأعراض المعرفية - أي على المستوى الفكري لدى المكتئب - مثل: لوم الذات، واليأس، وصعوبات التركيز، والسلبية العامة، والأفكار الانتحارية، وتتضمن الأعراض السلوكية، مثل: الانطواء وتجنب الآخرين، وفقدان الرغبة في القيام بالأعمال التي قد تجلب المتعة والسرور، والعطالة النفسية التي تتمثل في صعوبة المبادرة والقيام بالأنشطة الحياتية المختلفة؛ حيث تبدو أبسط المهام كأعباء كبيرة وثقيلة، أما الأعراض الجسدية فتتضمن: الأرق، ونقص الشهية، والشعور بالتعب، ونقص النوم أو الإفراط فيه (ما يمثل نوعاً من الهروب من الواقع)، وتغير الوزن، كما تتضمن الأعراض الانفعالية، مثل: الشعور بالحزن، والشعور بالذنب والعصبية والانفعال، وسرعة التوتر، وردود فعل الغضب المتفجر^٦.

فهذه الأعراض تظهر على الفرد المصاب بالاكتئاب المرضي أو الوجودي، لكن ما يميز الاكتئاب الوجودي أن أسبابه مختلفة عن الاكتئاب المرضي، ووفق تعريف «مصطفى حجازي» فهو رد فعل من ردود الفعل الشائعة على الخسارة والهزيمة في تحقيق مشروع الوجود - أي الفشل في إيجاد المعنى من الحياة - والذي يُعاش تحت الشعور بالذنب؛ وذلك لأن أقوى مصدرٍ للشعور بهذا الذنب هو الإحساس بالمسئولية الذاتية عن فشل تحقيق المشروع أو المعنى من الوجود وتحقيق الذات، وبذلك يشن المكتئب حرباً على ذاته التي تتخذ عنده صورة بخسه لنفسه، والشعور بانعدام القيمة أو الجدارة، ويشعر الإنسان بذلك الفشل في إيجاد غايته من حياته ومسئوليته عن ذلك الفشل، حتى عندما يكون المتسبب بذلك الشعور مصدرًا خارجيًا؛ لأن الإنسان في تلك الحالة يلوم ذاته على عجزها عن الرد والاستجابة الفاعلة التي توقف مصادر الإحباط الخارجية عند حدها.

وتكمن خطورة الاكتئاب الوجودي في أنه يدفع الإنسان لشن حرب على ذاته؛ ما يُعطل طاقات الفرد وإمكانياته التي يمكن توظيفها، فيعد الاكتئاب الوجودي نوعاً من الهزيمة الذاتية وبخس الذات، فعملية الجدل الذاتي التي تتم فيه، تجعل الفرد غارقاً في العطالة بدلاً من النهوض والتحدي والبحث من جديد عن معنى لحياته، ومن أبرز مظاهر الاكتئاب الوجودي لدى الفرد: تجميد الديمومة^٧ بحيث يظل ثابتاً متشبهاً بالماضي لا يمضي قُدماً في واقعه إلا بشكل صوري، فيما هو في واقعه النفسي الذاتي يظل ثابتاً على أحداث الماضي

^٦ مصطفى حجازي: الإنسان المهذور.. دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ٢٨٦-٢٨٧.

^٧ تجمد الديمومة: «يقصد بها تلك القضايا التي ظلت خارج الاستيعاب، ولم تحل، ومن ثم فإنها تولد أزمة ذاتية تعصف بكيان صاحبها، يثبت المرء عندها ويجتر ردود الفعل والانفعالات الخاصة بها بدلاً من أن ينمو ويتقدم، ويعيش خبرات جديدة، فيحول ذلك التكرار دون التعامل مع الجديد مع مثيرات المحيط، مما يعطل الإثراء الذاتي والنماء الوجودي».



وحياته، فيتعلق التاريخ عند المكتتب وجودياً ويظل يجترر المأساة التي تسببت في إيقاعه من حالة من فقدان المعنى أو الغاية من حياته^٨.

• علاقة الإحباط الوجودي بمعنى الحياة:

تعلق الإحباط الوجودي بالمعنى جلي وواضح، فيمكننا أن نستنتج مما سبق أن الفشل في إرادة المعنى لحياتنا هو ما يجعلنا نقع في الإحباط الوجودي، فتتعلق حالة الإحباط تلك بحرية الإرادة التي تجعل للإنسان حرية اختيار المعنى الخاص به، وتتعلق أيضاً بإرادة المعنى وهذا يعني أنه مسئول كل المسؤولية عن الغاية التي اختارها ليرى حياته من خلالها وما ستؤدي إليه، ويتعلق هذا أيضاً بفرديّة المعنى من الحياة لدى كل شخص فلكل شخص غاية متفردة لوجوده، حتى وإن اشتركنا في بعض القيم الوجودية الكبرى.

وهذا ينقلنا للسؤال المطروح في بداية الدراسة وهو: ما المعنى من حياتنا؟، قد يبدو السؤال سهلاً لكنه في الحقيقة يتطلب عمراً بأكمله كي يصل الإنسان إلى معناه الخاص، وهنا يأتي أهم ما قاله «فرانكل» وهو أن المعنى يُكتشف ولا يُمنح، فمهمة المعالج بالمعنى هي مساعدة الشخص على الوصول إلى المعنى من حياته وليست إخباره به أو منحه إياه، فحتى وإن كانت تُعطي في بعض القيم الوجودية الكبرى؛ إلا أنها لا تُمنح قسراً بل من خلال الإجابة عن الأسئلة^٩.

وقد أقام «فرانكل» نظريته العلاجية على هذا الجزء بالذات من كيفية إيجاد المعنى من حياتنا، فكان عندما يأتيه الناس بعد معاناة أو اضطراب أصاب حياتهم، ويرون أنهم لا يتحملون الحياة بسبب ما حدث معهم ولهم؛ كان يطرح عليهم سؤالاً وهو: (لِمَ لَمْ تنتحر حتى الآن؟)، والإجابة عن هذا السؤال توضح السبب من سؤالنا الأول «ما المعنى من حياتنا؟»، ومن ثم من خلال إجابة الشخص عن سبب عدم انتحاره حتى ذلك الوقت يبدأ «فرانكل» بمعرفة المعاني التي تجعله متمسكاً بالحياة، ومتحملاً المتاعب والمعاناة التي يلقاها، ومن هنا تبدأ رحلة العلاج بتقوية تلك المعاني لدى الشخص، والتي تمكنه لا من تجاوز المعاناة فحسب بل يتمكن من اكتشاف ذاته من خلالها بشكل أكبر ومتجاوز لحدود ذاته، بمعنى يؤمن به ويجعله مقبلاً على مواجهة صعاب الحياة متمسكاً بجدوى ما يفعل وما يقاوم ويتحمل لأجله.

ومفهوم «المعنى» له تعريفات عدة عند علماء النفس المختلفين، فعالم النفس «ألفريد أدلر» يُعرّف المعنى: بأنه المساهمة التي تقوم بها لمصلحة حياة الآخرين، وهو أيضاً في الاهتمام الحقيقي والخالص في التعاون معهم، وقد حصر «أدلر» معنى الحياة في ثلاثة اتجاهات هي: العمل، والعلاقة مع باقي أفراد المجتمع، والزواج. وردود فعل البشر تجاه المشكلات في هذه الاتجاهات الثلاث السابقة تكشف طبيعة فهمهم الشخصي لمعنى الحياة، ويرى «أدلر» أن الدليل على حصولنا على التعريف الحقيقي لمعنى الحياة هو أن يكون هذا التعريف مشتركاً بيننا وبين أفراد المجتمع، وأن يكون هذا المعنى يسمح للآخرين بأن يستفيدوا منه وأن يتقبلوه، فلدى «أدلر» لا يمكن اعتبار حياة العبقري ذات معنى، إلا إذا اعترف الآخرون بأن لها هذا

^٨ مصطفى حجازي: الإنسان المهودور.. دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٨٧-٢٨٨.

^٩ فيكتور فرانكل: إرادة المعنى، أسس وتطبيقات العلاج بالمعنى، مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.



المعنى^{١٠}، وهكذا نرى أن مفهوم الحياة أو معنى الحياة لدى «أدلر» مرتبط بالضرورة بنظرة الآخرين وتقييمهم لمعانا؛ ولذا اعتمدت نظريته تلك على إرادة النفوذ أو القوة وهو ما سنتحدث عنه بتفصيل أكثر في الجزء المتعلق بالإحباط الوجودي وتحمل المسؤولية.

فيما يرى «فرانكل» أن لكل شخص كما ذكرنا سابقاً معنى فريداً من حياته، فعلى حد قوله، هناك معانٍ فريدة للمواقف الفريدة لدى كل شخص، بحيث إن المعنى يُكتشف عند كل شخص، وهذا لا يمنع وجود قيم وجودية مشتركة بين البشر^{١١}، وامتلاك القيم يخفف من متاعب الإنسان في البحث عن معنى؛ إلا أن القيم ربما يستمدها الإنسان دون بحثٍ عنها لكن هذا يكلفه شيئاً آخر وهو ضرورة اختبار هذه القيم على أرض الواقع في المواقف الحقيقية حتى لا تبقى مجرد شعارات لا تجد إيماناً أو محرّكاً يجعل لها مصداقية في أرض الواقع، على عكس المعاني التي يستمدها الشخص من تفسيره لموقف ما اختبره بالفعل في الواقع وعاشه.

يرى «فرانكل» أن القيم والمعاني يستمدها الإنسان من ثلاثة مصادر، هي:

- (١) قيم ابتكارية، وتشمل: المعنى مما يمنحه الإنسان للعالم من إنجازات أو ابتكارات.
- (٢) قيم خبرية، وتشمل: المعنى الذي يأخذه الإنسان من العالم المحيط به في صورة خبرات.
- (٣) قيم اتجاهية، وتشمل: المعنى الذي يأخذه الإنسان من محنته في حالة ما إذا كان عليه أو يواجه واقعاً صعباً لا يمكن تغييره، فالقيم الاتجاهية ترتبط بالمعنى الذي يستمده الفرد من معاناته فلا يقع في الإحباط الوجودي، ويتجاوز ذاته ومعاناته بذلك المعنى.

ويُعدُّ مفهوم القيم الاتجاهية أكثر اتساعاً من مجرد تجاوز الإنسان لمعاناته بإيجاد معنى لها^{١٢}، فالمعاناة تُعد جانباً واحداً فقط لما يسميه «فرانكل» بـ«الثالوث المأساوي للوجود الإنساني»، ويتكون هذا الثالوث من ألم الفشل، والإثم المتعلق بالشعور بالذنب، والموت. فلا يوجد إنسان يمكنه إنكار أنه لم يفشل، أو أنه لم يعان، أو أنه لن يموت^{١٣}، وعند مواجهة هذا الثالوث، يخرج الإنسان بالقيمة الاتجاهية التي توجه حياته لمعنى أو قيمة تنقذ حياته من الوقوع في بئر اللاجدوى، وتمنعه من الوقوع فريسة للاكتئاب الوجودي.

فيما وضع «ألفريد لانجيل» أربعة شروط أساسية لمعنى الحياة عنده، تتمثل في:

- (١) قبول الإنسان للموقف الذي يقع فيه في حياته، سواء كان ذلك الموقف مشتملاً على إنجاز أو خبرة أو معاناة.
- (٢) إيجاد بعض القيم الموجبة في الموقف.
- (٣) الاستجابة طبقاً لما يمليه الضمير الإنساني للموقف.
- (٤) إدراك المطالب الخاصة للموقف.

^{١٠} محمد سعد حامد عثمان: الاكتئاب وعلاقته بتقدير الذات ومعنى الحياة لدى الشباب، الإسكندرية، دار الفكر الجامعي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ١١٧.

^{١١} يرى «فرانكل» أن القيم: هي تلك المعاني الشمولية التي تتبلور في مواقف نموذجية على المجتمع أو حتى الإنسانية مواجهتها.

^{١٢} فيكتور فرانكل: إرادة المعنى.. أسس وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٨٧-٨٨.

^{١٣} المرجع السابق، ص ٩١.



كما افترض «لانجيل» أربعة أنواع من الدوافع الإنسانية التي تسهم في تكوين المعنى لدى الإنسان، وهي:

- (١) السؤال عن الوجود أو الكينونة (هل من الممكن أن أكون شخصاً كاملاً؟)
- (٢) السؤال عن الحياة (على أي نحو أعيش؟ هل أنا مستمتع بحياتي؟ هل أشعر بخبرة الحب وإدراك القيم)
- (٣) السؤال عن الشخص (أنا أكون نفسي؟ هل أنا حر لكي أكون نفسي؟ هل أشعر بالاحترام نحو ذاتي؟)
- (٤) السؤال عن المعنى الوجودي (أنا هنا، لكن لأي غرض يكون وجودي؟ ولأي شيء جيد أحياء؟)

ومن خلال الإجابات عن تلك الأسئلة لدى «ألفريد لانجيل» يستطيع الإنسان التوصل للمعنى أو الغاية من حياته^{١٤}.

في حين تُعرّف «سهير أحمد سالم» معنى الحياة بأنه "مفهوم أو مجموعة من المفاهيم الإيجابية أو السلبية - كالنجاح أو الفشل مثلاً - يكوّنونها الفرد خلال حياته، عبر مصادر مختلفة داخل حيز خبراته الشخصية التي يخبرها في مواقف تفاعله مع ذاته والآخرين في ظل ثقافة المجتمع ومتغيراتها، وتعكس هذه المفاهيم توجه الفرد نحو الحياة، وأسلوب حياته، وتظهر في صورة أساليب وأهداف في مجالات شتى، يعمل على تحقيقها، ويتضمن ثلاثة أبعاد: الوعي بالمعنى في الحياة، والتوجه نحو الحياة، وأسلوب الحياة"^{١٥}.

ويميز «يالوم» بين مفهوم معنى الحياة في العموم، وبين مفهوم معنى الحياة الشخصي، ويبيّن أن الأول يختص بالمعنى المطلق للحياة والنظام العام للكون، ويختص بالروحانيات والأفكار التي يؤمن بها أصحاب الاتجاهات الدينية، في حين يشتمل المفهوم الثاني على تصور الفرد للهدف الذي يجب عليه السعي لتحقيقه في حياته، أو الرسالة التي يحملها، أو القضية التي يتبناها، وهكذا نجد «يالوم» يضيف شيئاً جديداً لمفهوم المعنى؛ حيث ميّز بين المعنى المطلق المرتبط بالوجود الإنساني بشكل كلي، والمرتبط بالأديان المفسّرة للوجود الإنساني، وبين المعنى الخاص لكل فرد من حياته والذي يسعى لتحقيقه والوصول إليه^{١٦}.

وهكذا نجد تعدد تعريفات مفهوم المعنى لدى علماء النفس، ويبقى الاتفاق على أن الاكتئاب في عمومه هو شعور بالحزن غير المعتاد بسبب الفقد سواء كان هذا الفقد فقدًا لعزيب أو لشعور أو فقدًا لقيمة أو فقدًا لمعنى الحياة، كما هو الحال في حالة الإحباط أو الاكتئاب الوجودي^{١٧}.

• علاقة الإحباط الوجودي بالذكاء الوجودي:

أكد عالم النفس «جاردنر» أهمية الفروق الفردية للحكم على ذكاء البشر؛ حيث إنه لم يميز بين الأشخاص من خلال التقدير الكمي لذكائهم فحسب، بل ميّز بينهم من خلال التقييم النوعي لذكائهم؛ حيث وجد أن البشر لا يختلفون في درجة الذكاء فحسب، بل في أنواع الذكاء التي يمتلكونها أيضًا، جاء كل هذا في نظريته عن «الذكاءات المتعددة»، واشتملت هذه الذكاءات على: الذكاء المنطقي، اللغوي، الجسمي، المكاني، الموسيقي، الاجتماعي، والذاتي، ثم أضاف نوعين آخرين هما: الذكاء الطبيعي، والذكاء الوجودي.

^{١٤} محمد سعد حامد عثمان، الاكتئاب وعلاقته بتقدير الذات ومعنى الحياة لدى الشباب، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٣.

^{١٥} المرجع السابق، ص ١٢٤.

^{١٦} المرجع السابق، ص ١٢٥.

^{١٧} المرجع السابق، ص ١٣١.



ويُعرّف «جاردنر» الذكاء الوجودي بأنه: «تلك القدرة التي يميل فيها الفرد إلى توجيه أسئلة أساسية جداً حول الحياة والموت والوجود، مثل: من نحن؟ ومن أين أتينا؟ ولماذا نموت؟»، ويهتم الذكاء الوجودي بقضايا الدين والوجود والغايات الكبرى من حياة البشر، ومن يمتلكون هذا النوع من الذكاء لديهم القدرة على التأمل في أكثر الأسئلة الأساسية في الوجود، مثل: لماذا نعيش؟ وما الغاية من وجودنا^{١٨}، ونستنتج من تعريفنا للذكاء الوجودي أن البشر الذين يمتلكون هذا النوع من الذكاء يمكنهم الإجابة عن الأسئلة الوجودية ومن ضمنها سؤال «لماذا أعيش» أي: ما الغاية أو المعنى من وجودنا؟ مما يجعل الذكاء الوجودي مرتبطاً بشكل ما بالإحباط الوجودي والذي هو فشل في إيجاد المعنى من وجودنا.

هنا يأتي تساؤل آخر هو: هل يمتلك بعض البشر هذا النوع من الذكاء والبقية لا يمتلكونه؟

الحقيقة أن هذا النوع من الذكاءات يُكتسب وهو ما يوضحه «فرانكل» في حديثه عن حالة «الفراغ الوجودي»، وقد تكلمنا في جزء سابق عن ظهور الإحباط الوجودي في صورتين: إحداهما؛ حالة الملل والرتابة تُشعر الإنسان بأن حياته بلا جدوى ولا هدف وهو ما يُعرف بـ«حالة الفراغ الوجودي»، فمن يعانون من الشعور باللامعنى والفراغ، وعلى حد قول «فرانكل» فهناك أعداد متزايدة من الأشخاص يشكون من حالة من «الخواء الداخلي»، وهذا هو السبب الذي جعل هذه الحالة تُسمى بالفراغ الوجودي.

وحالة الإحباط الوجودي الناتجة عن الملل والفراغ الوجودي متعلقة بالتعليم بقدر كبير؛ إذ إن طرق التعليم عندما تكون مقتصرة على نقل التقاليد والمعرفة، دون أن تصقل العقل بأدوات تجعله قادراً على أن يبحث في المعاني الفريدة من حياته، والقيم التي لا بد له من اعتناقها حتى لا يشعر باللاجدوى من حياته^{١٩}؛ فإن ذلك يؤدي إلى خفض مقدار اكتساب الذكاء الوجودي لدى الشباب ومن ثم شعورهم بالملل واللاجدوى المؤدية للإحباط الوجودي، وإذا ما اقترنت حالة اللاجدوى تلك بمعاناة يمر بها الشخص فإنه ينهار بشكل أعمق، وقد يلجأ لطرق عديدة للتخلص من وطأة ذلك الشعور.

• علاقة الإحباط الوجودي بتحمل المسؤولية:

سلط «فرانكل» في علاجه بالمعنى الضوء على الحتمية الشاملة، بمعنى أنه لم يتفق مع المدارس النفسية التي ترى أن الإنسان مدفوع بغرائزه وأن احتياجاته النفسية هي ما تملئ عليه مصيره، بل رأى في ذلك اختزالاً لإنسانية الإنسان، فيما يرى علم النفس الفرويدي أن الدافع النفسي الأساسي لدى الإنسان هو «إرادة اللذة» المتمثلة في سعي الإنسان الدءوب لجلب السعادة واللذة الحسية، وجعلها الهدف الأساسي من حياة الإنسان، وهذا يُعد اختزالاً للإنسان في جانبه الجسدي البيولوجي، في حين يرى علم النفس الأدلري أن الدافع النفسي الأساسي لدى الإنسان هو «إرادة القوة والنفوذ» وأن الإنسان يحقق نفسه في الحياة من خلال علاقاته الاجتماعية، وقدرته على فرض نفوذه أو سلطته، ونجد هنا اختزال الإنسان في الجانب النفسي الاجتماعي له، المتمثل في توافق الإنسان في علاقاته ومجتمعه.

^{١٨} آمال الزعبي وآخرون: «الذكاء الوجودي وعلاقته بمتغيري الجنس والمستوى الدراسي»، قسم علم النفس الإرشادي والتربوي، كلية التربية، جامعة اليرموك، الأردن، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات التربوية والنفسية، العدد ٣، المجلد ٢٣، يوليو ٢٠١٥، ص ١٣٠.

^{١٩} فيكتور فرانكل: إرادة المعنى .. أسس وتطبيقات، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٣.



وعلى الجانب الآخر يرى «فرانكل» أن الدافع النفسي الأساسي لدى الإنسان هو «إرادة المعنى» المتمثل في تسامي المرء على نفسه ليجد قيمة معنوية تجعله متجاوزاً لحدود ذاته - الجسدية والانفعالية - ليصل إلى الجانب الأسمى في تكوينه وهو الجانب (المعنوي/العقلاني)، ويرى «فرانكل» أن عملية إيجاد الإنسان معنى لحياته أعادت للإنسان إنسانيته التي سلبتها اتجاهات المدارس النفسية التقليدية، عندما قصرت فهمها للإنسان في ضوء وجوده البيولوجي أو الحيواني، أو الاجتماعي النفسي في أفضل الظروف، متناسية أهم ما يميز الإنسان كإنسان: حريته ومسئوليته عن أفعاله، وما هو أهم من ذلك هو تطلعه الدائم إلى تحقيق معنى يجعل حياته تستحق أن تعاش، وذلك فيما وراء مجرد إشباع الحاجات أو فرض النفوذ^{٢٠}.

وإرادة المعنى لدى الإنسان تتطلب تحمله مسؤولية أن يجد ذلك المعنى، وأن يتحمل نتيجة اختياراته وما سيفعله هو تجاه الحياة والمواقف ليخرج من الأزمات إذا وقع بها، ويرى «فرانكل» في تجربته الحياتية، أن عليه أن يُعلم الأشخاص الذين استبدَّ بهم اليأس، بأن ما هو متوقع من الحياة ليس هو موضع الأهمية، بل أن ما يعيننا بالضبط هو ما نتوقعه الحياة منا، ففي لحظة ما من المعاناة قد يتوقف الإنسان عن السؤال عن معنى الحياة، ويفكر بدلاً من ذلك في نفسه كما لو أنها في موضع سؤال من قبل الحياة في كل يوم وكل خبرة نفسية نمر بها، ولا ينبغي أن تقوم إجابتنا في تلك الحالة على الكلام والتأمل، بل على العمل الحق والمسلك الحق، فالحياة تختص في النهاية بتحمل المسؤولية التي تفرض على الإنسان أن يجد الإجابة الصحيحة لمشكلاته، ويحقق المهام التي يفرضها عليه معناه وغايته في كل وقت.

وهذه المهام هي التي تبين دور تحمل المسؤولية في إيجاد المعنى بإرادة حرة وسعي مستمر لعدم الوقوع في حالة من الإحباط الوجودي، ففي بعض المواقف تكون مهام الإنسان هو أن الموقف يستلزم منه السعي إلى تشكيل قدره ومصيره بأفعاله وأعماله، وفي أحيان ومهام أخرى في الحياة قد يكون في موقف يتطلب منه أن يستفيد من فرصة التأمل وأن يحقق وجوده وقوته بهذه الطريقة، وقد تستلزم الحياة من الإنسان في بعض الأحيان أن يتقبل قدره ويصدع له ويتحمل متاعبه وأعباءه، وقد قال «فرانكل» في كتابه عن هذه الحالة الأخيرة: " فحينما يجد الإنسان أن مصيره هو المعاناة؛ فإن عليه أن يتقبل آلامه ومعاناته كما لو أنها مهمة مفروضة عليه، وهي مهمة فريدة ومتميزة، وعليه أن يعترف بالحقيقة بأنه حتى في المعاناة فهو فريد ووحيد في الكون، ولا يستطيع أحد أن يخلصه من معاناته أو يعاني بدلاً منه، ففرصته الفريدة تكمن في الطريقة التي يتحمل بها أعباءه ومتاعبه^{٢١}، فتحمل المسؤولية في إيجاد المعنى حتى وإن كان معنى من المعاناة هو الذي يجعلنا قادرين على تجاوزها، ويجعلنا قادرين على تخطي فكرة الشعور بالإثم من تحمل مسؤولية فقداننا للمعنى عندما نقع في حالة من الاكتئاب الوجودي.

ثانياً: النتائج النفسية لثورات الربيع العربي:

إن من وُلد أعمى لا يرى الضوء ليس كمن رأى الضوء وعرف ماهية الأشياء وجمالها وألوانها وبهجتها وعبوسها وتغيراتها وأحوالها ثم أصابه العمى، فربما تبدو النتيجة واحدة من أن كليهما حُرْمَ نعمة رؤية الضوء

^{٢٠} المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

^{٢١} فيكتور فرانكل: الإنسان يبحث عن المعنى مقدمة في العلاج بالمعنى التسامي بالنفس، مرجع سابق، ص ١٠٨-١٠٩.



لكن شعورهما وأفكارهما نحو الحياة قد تختلف، فقدرة الثاني على تجاوز فقدانه لبصره تكون أصعب وأمرّ؛ لأنه يعلم جمال الضوء الطليق، ومحاولته التجاوز وتقبل الأمر ليست بالأمر السهل.

بطريقة مشابهة نوعًا ما وكشعوب عاشت طوال حياتها تعاني التهميش الأزلي والذل والقمع والاستبداد، ثم انقلب الحال ورأت الضوء الطليق بعين بصيرتها عندما استعادت حريتها وكرامتها وإنسانيتها إبان ثورات الربيع العربي، فإن أمر رجوعها لعمى الذل والامتهان والاستبداد مرة أخرى أمر شديد الوطأة والتكلفة، فهو يكلفهم قيمة الضوء المعني الذي رأوه في كل لحظة من حريتهم، يكلفهم ثمن الظلام الذي أنكروه وأسدلوا الستار عنه ليعرفوا ضوء هم الطليق، وليدفعوا ثمن ذلك من أعمارهم واستقرارهم وأمانهم النفسي ومعناهم وغايتهم في الحياة.

هذا ما حدث مع ثوار الربيع العربي بعد فشل الثورات أو تدهور أحوالها، فوجد حالة عامة من فقدان الثقة والأمل لدى الشباب عقب فشل الثورات، ويحاول كل شخص جاهدًا أن يجد مخرجًا على طريقته، فعزف بعض الشباب عن الحياة السياسية وعزف آخرون عن الحياة الاجتماعية بالعموم، وهرب غيرهم من واقعهم ليهتموا بالفن أو كرة القدم مرة أخرى، وبحث بعضهم عن التفوق المهني والدراسي، وهناك من سافر أو هاجر، وبعضهم بل كثيرهم قُتل في هذه الثورات، واعتُقل بعض الشباب وغُدّبوا وسار بعضهم في طريق الإلحاد، وأنهى آخرون حياتهم بالانتحار.

تظهر حالة الإحباط الوجودي في حالتين: إحداهما؛ نتاج الشعور بالملل والرتابة جهة الحياة والشعور بالفراغ الوجودي، والأخرى؛ نتاج حدوث الكوارث والصدمات والهزائم الكبرى والحروب، ويمكننا أن نعتبر حالة فشل ثورات الربيع العربي ونتائجها وتأثيرها في فقد الإيمان بمعانٍ ورموز وأشخاص وأفكار، يتعلق بحالة الإحباط الوجودي المرتبطة بالصدمات الاجتماعية، فالسبب في الاكتئاب الوجودي هنا هو شعور الفرد تجاه فشله في إيجاد غايته وشعوره بالمسؤولية حيال ذلك، إلا أنه في صور قمعية واستبدادية أكثر ذكاء تُوقع بعض السلطات المتسلطة شعوبها في فخ الاكتئاب الوجودي.

وهذا ما يتناوله «مصطفى حجازي» في دراسته عن الإنسان العربي المهودور، حيث يرى أنه في نظم الاستبداد تعمل الأنظمة على هدر الإنسان عن طريق إفقاده لإنسانيته وقمعه وامتهان كرامته وقتله في بعض الأحيان إن طالب بحقه، وهذا الهدر الخارجي الذي يصبح مصدرًا في اكتئابه الوجودي، يحوّل حالة الاكتئاب هذه إلى داخله فيصبح مهودورًا ومهزومًا وبذلك تكتمل الهزيمة التي كانت خارجية في الأصل بالهزيمة الذاتية، وهو ما يضاعف من حالة الهدر؛ لأنه يصبح ثنائي المصدر فهذّر يتعلق بتسلط السلطة وقمعها وهذّر آخر يأتي من داخل الإنسان نفسه؛ نتيجة انهزامه في مواجهة القمع وشعوره بفشله في إيجاد معناه وتحقيق وجوده الإنساني، وهو بذلك يجعل نفسه أسيرة للقيود المزدوج؛ حيث جلد الذات وبخسها من جانب وسد آفاق الدنيا الواقعية من الجانب الآخر، فيُشعل المستبد الصراع من جهة ليدخل شعبه في صراع بين استبداد خارجي وهزيمة داخلية تتجلى في الاكتئاب والإحباط الوجودي فيصبح الإنسان بذلك المتحالف الأول مع المستبد أو المتسلط الذي هدره بالأصل؛ لأنه بوقوعه في حالة الإحباط الوجودي يساعد المستبد في الوصول إلى مراده من إخراس وهزيمة الشعب، وهكذا يقع الإنسان المهودور ضحية فخ الاكتئاب الوجودي^{٢٢}.

^{٢٢} مصطفى حجازي: الإنسان المهودور.. دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧.



وهكذا نرى بعض الأنظمة المستبدة قد تُشعل فتيل الاكتئاب الوجودي لدى شعوبها، لتصنعه داخلهم ذات السلطة المستبدة داخلياً، ويتمثل ذلك في صورة بخسه لنفسه وفقدانه للمعنى والانهازم، فتدفعهم لتدمير أنفسهم بأنفسهم، وبعد أن يُفقد الاكتئاب الوجودي الإنسانَ المعنى في حياته، قد يجعل بعض الأشخاص يفقدون المعنى من القيم أو الدين أو المجتمع أو الحياة، فهو في أعلى مرحلة منه يصل لأفكار عدمية تؤدي بالشخص للإلحاد، وأخرى انتحارية قد تؤدي بحياة الشخص المصاب به، أو قد يظهر ذلك الإحباط في صور متعددة من الهروب النفسي من الواقع والحياة، أو بالانسحاب والعزوف عن ممارسة الحياة الاجتماعية والسياسية.

وفي جميع الأحوال، فكل فرد دفع حساب الضوء الطليق الذي رآه بطريقة ما أو بأخرى، وكما نرى أن المظاهر النفسية والاجتماعية تختلف من شخص لآخر؛ فإننا في هذه الدراسة نتناول بعض الظواهر الاجتماعية النفسية التي طرأت على وضع الشباب العربي بعد فشل ثوراتهم، والظواهر هي: الاغتراب النفسي، والانتحار، والإلحاد، وتناول تلك الظواهر لا يجعلنا ننكر وجود ظواهر أخرى مجتمعية ونفسية ظهرت بعد فشل الثورات.

(١) الاغتراب النفسي:

الاغتراب النفسي: هو شعور يجعل الإنسان يحس بعدم انتمائه للمجتمع الذي يعيش فيه، ولا حتى للأقارب والأصدقاء والعائلة والأقربين، وينتج عنه مشاعر وحدة ووحشة مفرطة يشعر بها الشخص حتى وإن كان يحوطه الكثير من البشر في كل مكان، فالأزمة هنا ليست في الالتقاء المادي بل إنها تكمن في التقاء الأفكار والمشاعر والآراء والاتجاهات، ويُعرف «زهران» الاغتراب النفسي: بأنه شعور الفرد بعدم الانتماء، وفقدان الثقة ورفض القيم والمعايير الاجتماعية، والمعاناة من الضغوط النفسية، وتعرض وحدة الشخصية للضعف والانهيار بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم داخل المجتمع، أما «بيك» و«ميشيل» فيعرفان الاغتراب النفسي: بأنه شعور الفرد بالانفصال عن الأشخاص الآخرين أو عن الذات أو كليهما.

وهناك بعض النظريات النفسية التي حاولت أن تُفسّر ظاهرة الاغتراب النفسي، ومن أهمها المدرسة التحليلية في علم النفس، والتي نظرت للاغتراب النفسي باعتباره حالة تضمن قمع ذاتية الفرد وعفويته، وأن الوظيفة الأساسية للعلاج في تلك الحالة هي كيفية إرجاع الفرد إلى عفويته، وقدرته على الحكم أي مساعدته على التغلب على اغتراب الذات؛ وذلك لأن الاغتراب يؤدي إلى وضع تختلط فيه مشاعر الفرد، أي يختلط عليه ما يحبه وما لا يحبه، وما يقبله وما يرفضه، بحيث يكون الفرد غافلاً أو غير مدرك لذاته الحقيقية، كما اعتبر النفسانيون أن الاغتراب النفسي هو ظاهرة أو سمة الشخص المصاب بالاضطراب النفسي.

أما المدرسة النفسية السلوكية فهي تُفسّر الاغتراب النفسي: بأنه شعور الفرد عندما ينصاع ويندمج بين الآخرين بلا رأي أو فكر محدد؛ لكي لا يفقد التواصل معهم، وبدلاً من ذلك يفقد التواصل مع نفسه، بينما أصحاب نظرية المجال يفسرون الاغتراب على أنه الحواجز النفسية التي تحول دون تحقيق أهداف الفرد، والصراعات وما قد يصحبها من إقدام وهجوم غاضب، وإحجام وتقهر خائف، وعلى هذا فالاغتراب ليس ناتجاً من عوامل داخلية فقط، بل من عوامل خارجية تتضمن سرعة التغيرات البيئية، والاتجاه نحو هذه التغيرات والعوامل، ويرى أصحاب نظرية الذات أن الاغتراب ينشأ عن الإدراك السلبي للذات، وعدم فهمها بشكل سليم، وكذلك نتيجة للفرق الشاسع بين تصور الفرد لذاته المثالية وذاته الواقعية.



وهناك أبعاد يتكون منها الاغتراب النفسي، تكمن فيما يلي:

(١) اللاقوة (العجز): تشير إلى تلك الحالة التي يشعر بها الفرد عندما يشعر بأنه غير قادر على تحقيق أهدافه، وأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها، فمصيره وإرادته ليست بيده، بل تحددها عوامل أخرى وقوى خارجة عن إرادته.

(٢) اللامعنى: ويقصد بها أن الشخص المغترب نفسياً يشعر أن حياته بلا معنى، وأنها تسير وفق منطق غير مفهوم وغير معقول، ثم يشعر المغترب نتاج ذلك بأن حياته لا جدوى منها، وبذلك يفقد واقعيته ويشعر باللامبالاة والفراغ الوجودي.

(٣) اللامعيارية: تشير إلى شعور الفرد بأن الوسائل غير المشروعة هي المطلوبة اليوم، وأنه يحتاجها لتحقيق أهدافه؛ ما يشعره بضياح القيم وفقدان المعايير الاجتماعية التي اصطلح عليها مجتمعه.

(٤) العزلة الاجتماعية: هي انسحاب الفرد وانعزاله عن التيار السائد في مجتمعه، وشعوره بالغبية والوحدة وحتى لو كان مع الآخرين، مع سعيه في بعض الأحيان للابتعاد عن الآخرين.

(٥) التمرد: يقصد به شعور الفرد بالبعد عن الواقع، ومحاولته الخروج عن المألوف والشائع، وعدم الانصياع للعادات والتقاليد الشائعة، والرفض والعداء والكراهية لكل ما يحيط بالفرد من معايير وقيم، وقد يكون التمرد على النفس أو المجتمع بما يحتويه من مؤسسات وأنظمة.

(٦) الرفض: وهو اتجاه سلبي رافض، معادٍ للآخرين، أو نبذ بعض السلوكيات، ويتضمن الرفض الاجتماعي أموراً مثل: التمرد على المجتمع، وعدم التقبل الاجتماعي، ورفض الذات^{٢٣}.

وهكذا نرى من تعريف الاغتراب النفسي أنه قد يتعلق بالعمليات أو التغيرات الثقافية والاجتماعية التي تحدث بداخل المجتمع، ولا يمكن إنكار أن الثورات من أكبر الظواهر المجتمعية التي تُحدث تغيرات ثقافية واجتماعية مختلفة بداخل المجتمعات؛ لذا فالشعور بالاغتراب النفسي إبان الثورات هو أمر وارد الحدوث بدرجة كبيرة، وتمر ظاهرة الاغتراب بثلاث مراحل هي:

(١) مرحلة التهيؤ للاغتراب: وهي المرحلة التي تتضمن مفهوم فقدان السيطرة المتمثلة في سلب المعرفة وسلب الحرية؛ مما يترتب عليه فقدان المعنى واللامعيارية على التعاقب، فعندما يشعر المرء بالعجز أو أنه فقد السيطرة إزاء حياته والمواقف الاجتماعية التي يتعرض لها، وأنه لا حول له ولا قوة، عندها تتساوى معاني الأشياء لديه، ويتبع ذلك فقد المعيارية لديه، فلا معايير تحكمه ولا قواعد يمكن أن ينتهي إليها.

(٢) مرحلة الرفض والنفور الثقافي: وهي المرحلة التي تتعارض فيها اختيارات الأفراد مع الأحداث الواقعية، وهنا يُحدث تناقضاً بين ما هو واقعي وما هو مثالي وما يترتب على ذلك من صراع للأهداف، وفي هذه المرحلة يكون الفرد منعزلاً على المستويين العاطفي والمعرفي عن أفراد مجتمعه؛ إذ ينظر إليهم بوصفهم

^{٢٣} حوار عباس كرماش: «الاغتراب النفسي وعلاقته بقلق المستقبل لدى الطلبة النازحين في جامعة بابل»، جامعة بابل، كلية التربية الأساسية، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٣٠، كانون أول ٢٠١٦، ص ٢٢٩-٢٣١.



غرباء، وهذا يدفعه للدخول في المرحلة التالية.

(٣) مرحلة التكيف المغترب: وفي هذه المرحلة يحاول الفرد التكيف مع المواقف بعدة طرق منها:

- الاندماج الكامل والمسايرة والخضوع لكل المواقف.

- التمرد والثورة والاحتجاج، أي اتخاذه موقفًا إيجابيًا نشطًا، ويتخذ موقف الرفض للأهداف الثقافية، ويكون في هذه الحالة واقفًا بإحدى قدميه داخل النسق الاجتماعي وبالأخرى خارجه؛ ما يحيله في نهاية المطاف إلى أن يصبح «إنسانًا هامشيًا»^{٢٤}.

وهناك ثلاثة تفسيرات لضياع الشباب العربي واغترابه:

(١) الفجوة بين الأمل والواقع: فامتداد تلك الفجوة يؤدي حتمًا إلى الإحباط وزيادة الشحنات العدوانية لدى الشباب، خصوصًا إذا أحسوا بأن هذه الفجوة سببها النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي القائم، فيصبحون مهينين للبحث عن بديل.

(٢) اختلاف العدالة التوزيعية: وفي هذه الحالة يتحول الإحباط إلى سلوك عدواني، إذا ما تراءى لهم أن الآخرين من أقرانهم، سواء كانوا من المتساوين معهم، أو ممن هم أقل إنجازًا، يحصلون على نصيب أعلى من الثروة والمكانة الاجتماعية.

(٣) الحرمان النسبي: بمعنى أن الشباب يتوقعون ألا تسوء حالتهم فيما تتحسن أحوال الآخرين في المجتمع نفسه دونما سبب مشروع، فإذا ما حدث العكس، وهو ما حدث بالفعل في المجتمع العربي؛ فإن هذا الإحساس بالحرمان، ومعه الإحساس بالظلم يولدان غضبًا وسخطًا، فيرفضون النظام القائم ويتحدونه ويحاولون اقتلاعه ولو بالعنف^{٢٥}.

وينتج عن ذلك انعدام وجود هدف واضح لدى الشباب في حياتهم، وضياع القيم، كما أن ذلك الشعور بالاغتراب قد يجعل الفرد رافضًا للمعايير الاجتماعية؛ لأنه لا يشعر أن تلك المعايير أو القيم المجتمعية ساعدته عندما وقع في أزمات واقعية في مجتمعه، ونجد ذلك واضحًا لدى شباب الربيع العربي إبان تدهور الأحوال، فنجد أن معظمهم قد تغير انتماؤهم أو اعتقادتهم وفقدوا إيمانهم بالمعايير المجتمعية التي كانوا يؤمنون بها؛ لأنهم وجدوا أن تلك المعايير مجرد أحلام خيالية مستحيلة التحقيق في أرض الواقع، أو وجدوا أن من كانوا يدعونهم لتلك المعايير في المجتمع هم أول من كفروا بها عند تعاملهم على أرض الواقع.

وكذلك نجد أن محاولات بعض الشباب للعودة إلى نمط حياتهم قبل الثورة باتت صعبًا، فقد تغيرت أفكارهم وشخصياتهم؛ مما جعل محاولات اندماجهم في المجتمع من جديد أمرًا صعبًا، ووجد بعضهم نفسه قد حقق المبادئ العادلة التي قد تضمن له حياة من المفترض أن تكون جيدة، ولكن انقلبت الموازين ووجد أن

^{٢٤} بشرى علي: «مظاهر الاغتراب النفسي لدى الطلبة السوريين في بعض الجامعات المصرية»، جامعة دمشق، كلية التربية، مجلة جامعة دمشق، العدد ١، المجلد ٢٤، ٢٠٠٨، ص ٥٢٠-٥٢١.

^{٢٥} صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، [د.م.]، دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٠، ص ٢.



تلك المبادئ قد تورده المهالك وقد يتعرض للانتهاكات والاعتقال بسببها، ووجد آخرون عائلتهم وأقاربهم وأصدقاءهم يهاجمونهم بعد ظهور الموجة المضادة للثورة فبات بعض الشباب ينصاع ويندمج مع الآخرين بلا رأي أو فكر؛ حتى لا يخسر انتماءه للعائلة والأقربين بعد فقدانه الانتماء لمجتمعه.

وبذلك فقد الكثير من الشباب المعنى من حياتهم وشعروا أنها بلا جدوى عندما فشلوا في الوصول إلى غايتهم؛ مما جعل بعضهم من الشباب يشعرون بالاغتراب عن ذاتهم وفي ذاتهم، بمعنى أنهم شعروا بأنهم غرباء عن المجتمع الذي يعيشون فيه ويتعاطون معه، وأنهم لا تأثير لهم ولا جدوى من أفعالهم، واغتربوا في ذاتهم فشعروا بضياح المعنى الشخصي من حياتهم؛ مما جعل بعضهم يقع في اضطرابات نفسية أعمق وأصعب من الاغتراب النفسي.

(٢) الانتحار:

هل ترتبط ظاهرة الانتحار بفشل الربيع العربي؟

سواء كانت الإجابة إيجاباً أو سلباً فإننا نسلط الضوء هنا على الانتحار باعتباره وسيلة لجأ إليها بعض الأشخاص بعد فشل الثورات، باعتباره فشلاً يتعلق بوجود المنتحر فقرر إنهاء حياته، فالانتحار بالنسبة لشخص عاجز عن الاستقرار والاستمرار هو الوقت الذي تبدو فيه الحياة جوفاء خالية من المعاني والمبررات، فيقدم على مواجهة أخرى لا تنضب.

الانتحار: هو أن يُقدم الفرد على قتل نفسه عمدًا وذاتيًا لأسباب مختلفة من ضمنها الأسباب النفسية، ويوصف «دلماً» الانتحار بأنه: "الفعل الذي يصدر عن إنسان يفضل الموت عن الوعي، ورغم قدرته على اختيار الحياة فهو يختار الموت دون أي ضرورة أخلاقية لذلك"^{١١}، وفي ضوء اعتبار الانتحار ظاهرة اجتماعية كما هو ظاهرة نفسية، يُعرّف عالم الاجتماع «إيميل دوركهايم» الانتحار بأنه: "كل حالة موت تنتج بشكل مباشر أو غير مباشر عن فعل إيجابي أو سلبي تقوم الضحية نفسها بتنفيذه وتعلم أن نتيجة فعلها هذا هو الموت".

وبينما ينظر معظم الناس إلى المنتحر على أنه شخصٌ جبان خائف، ينظر «توماس جوينر» متخصص علم النفس الإكلينيكي بجامعة فلوريدا إلى الأمر بشكل مختلف، فهو لا يرى أن المقدم على الانتحار خائفٌ أو جبان بل يرى أن أحد أهم أسباب إقدامه على الانتحار هو تطويره لحالة عدم الخوف من الموت، ولكن قبل أن يصل المنتحر إلى حالة عدم الخوف هذه فإنه يمر بمرحلة قبلها وتتطور معه وهي الرغبة في الانتحار، ويُعرّف «جوينر» «الرغبة في الانتحار» بأنها عملية يطور فيها الشخص أفكارًا انتحارية لكنه لا يقدم على الانتحار بسببها، وهناك معياران أساسيان يجب أن يوجدوا معاً ضمن أفكار شخص ما عن نفسه لتتطور رغبته في الانتحار:

أولاهما؛ الانتماء المحبب: الذي يتعلق بشعور الشخص بأنه وحيد، وهو يُعتبر صورة من صور الاغتراب النفسي، فيشعر الشخص أنه منعزل بالكامل عن العالم من حوله ولا ينتمي إليه، ويفقد الرابط بينه وبين المجتمع من حوله، سواء الأشخاص - أصدقاء وأقارب - أو حتى الوطن نفسه، ونتيجة لذلك يفقد

^{١١} ياسر ثابت: شهقة اليائسين .. الانتحار في الوطن العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ١١-١٢.



الشخص لحالة العناية المتبادلة، أي أنه يفقد وجود أشخاص يعتني بهم ويعتنون به في حياته. أما المعيار الثاني الذي يتسبب في تكوين الرغبة في الانتحار في رأي «جوينر»؛ فيتمثل في شعور الشخص بأنه عبء على الآخرين من حوله؛ حيث يكون بداخله فكرة مغزاها أن «موتي أفضل من حياتي بالنسبة لهم»، والتي غالبًا تندمج مع رسالة أخرى متكررة لذاته يقول فيها: «أنا أكره نفسي»، وبذلك يقلل كثيرًا من تقديره لذاته ويشعر بالعار واللوم الدائم لنفسه، وغالبًا ما يقترن ذلك بحالة توتر شديد عنده، وبهذين المعيارين معًا ينتقل الفرد إلى المرحلة الأخيرة، وهي الحالة التي تتلخص في فكرة أنه غير خائف من الموت، ويتمثل ذلك في التدريب على مقاومة الخوف من الموت فيكتسب بمحاولاته تلك ألفة مع الأفعال المؤلمة أو العنيفة، والتي تمنحه درجة من الألفة مع الفعل الانتحاري، ولذلك نجد أن نسب الانتحار ترتفع لدى الأشخاص الذين قاموا بإيذاء أنفسهم جسديًا على مدى زمني كبير حتى وإن كان ذلك في البداية لغرض آخر غير الانتحار.

وفي الواقع يقف ذلك كله ليتعارض مع الفكرة العامة لدى الناس عن المنتحرين من أن انتحارهم ناتج عن تجربة لحظية، بمعنى أنه حالة من التهور والاندفاع تظهر فجأة وتنفذ فجأة، لكن الحقيقة أن المقدم على الانتحار يستغرق الكثير من الوقت لتطوير فكرته ووضع خطة، ورغم ذلك كله يظل مترددًا حتى اللحظات الأخيرة قبيل إقدامه على فعلته؛ لأن غريزة البقاء على قيد الحياة يبقى لها أثر حتى اللحظة الأخيرة، وذلك يدفعنا للتساؤل: هل نفهم الانتحار؟

لدى معظمنا تصور خاطئ لمفهوم الانتحار، فيظن أن من يُقدم على الانتحار يريد الموت، لكن الوصف الأدق أنه شخص يود التخلص من ألمه، لقد حاولت بعض النظريات تفسير ظاهرة الانتحار، ومن أهمها النظرية النفسية المرضية التي نظرت إلى الانتحار باعتباره نتيجة لبعض الاضطرابات العقلية الحادة مثل: اضطرابات المزاج وإدمان الكحول والفصام، كما أن نصف المنتحرين يوجد في سجلهم المرضي اتصال واحد على الأقل بمصالح الطب العقلي، وهذا الاتصال يضاعف خطر الانتحار ٢٦ مرة في السنة التي تليه، وأغلب البحوث المعتمدة على الفحص النفسي الدقيق أقرت بوجود اضطراب عقلي لدى ٩٠٪ من المنتحرين، فنجد أن نصفهم كان يعاني من الاكتئاب، فيما ثلث حالات المنتحرين تكون نتيجة لتعاطي الكحول، ونحو ٥٠٪ كانوا يعانون من الفصام، وثلث حالات المنتحرين هي حالات عانت من اضطرابات الشخصية.

ومن الملاحظ أن الحالة العقلية والنفسية للمنتحر قد تفرض عليه أفكارًا قهرية مصحوبة برغبات قوية في الموت والمعاناة والأرق، ويحتفظ برغبات لا شعورية عدوانية بداخله، وكثيرًا ما يتكلم المنتحر عن الشعور بالإثم ويستعذب الألم، وقد نبّه الملاحظون إلى مسئولية الطب العقلي في منع الشخص المقدم على الانتحار من تنفيذ انتحاره؛ لأن أغلب المنتحرين يرددون عبارات انتحارية ولو حتى على سبيل المزاح، وذلك قبل تنفيذ العملية الانتحارية بمدة سنة تقريبًا.

وترى مدرسة التحليل النفسي مشكلة الانتحار على أنها صراع بين غريزتي الحياة والموت بداخل الإنسان، فعندما يفشل الإنسان في توجيه عدوانه للخارج عند تعرضه لإحباط خارجي؛ فإن ذلك العدوان يرتد مرة أخرى إلى داخل الشخص، ويجعله يُقدم على أفعال عدوانية كإيذاء نفسه ظنًا منه أنه بذلك يتخلص من آلامه وإحباطاته الخارجية التي أخفق في دفعها عن نفسه.



فيما رأت النظرية الاجتماعية أن العوامل المجتمعية والثقافية قد تلعب دوراً وراء الانتحار، فالنظرة الكلاسيكية ترى أن الزواج واقٍ من الانتحار، على الرغم من أن درجة تأثيره تتناقص مع الوقت، فمنذ عام ١٩٧٥ أصبح خطر الانتحار وشيكاً في كل الحالات سواء أكان الفرد متزوجاً أو عزباً أو مطلقاً أو أرملاً، هذا بالإضافة إلى أن الشباب الذين ينشأون في بيت يغيب فيه أحد الوالدين، يكون احتمال الاندفاع نحو السلوك الانتحاري لديهم أكبر.

ويجدر الإشارة إلى البطالة كعامل أساسي يضاعف خطر الانتحار، كما أن عامل الفقر وضعف الدخل وانحطاط المستوى الاجتماعي يلعب دوراً في ظهور خطر الانتحار، أما على المستوى الاجتماعي البيئي فنجد أن ذكريات الفقد والحرمان والاعتداءات الجنسية خلال فترة الطفولة، من العوامل التي تؤدي إلى ظهور سلوكيات انتحارية عند الراشدين، فالطفل الناشئ في ظل نظام أسري مفكك لا مبالٍ قد يدفعه للإقدام على الانتحار أكثر من غيره.

وأكد «لويس» أن المُقدم على الانتحار هو شخص لم يستطع أن يتوافق مع الحياة بسبب ما لديه من قصور وفشل سواء في توافقه الذاتي أو الاجتماعي، ويرى «فروم» أنه يجب تسليط الضوء على الضغط الممارس على الطبيعة الإنسانية ودوره في الوصول إلى خطر الانتحار، فيرى أننا لا نستطيع تحديد الصحة العقلية والنفسية لشخص ما دون دراسة الضغط الممارس على الطبيعة الإنسانية من خلال النظر إلى نمط النظام السياسي والاجتماعي الذي يعيش الفرد بداخله، وما يمثله ذلك النظام من ضغط أو قمع على الطبيعة الإنسانية للفرد^{٢٧}.

وكما لا يخفى كانت بدايات الربيع العربي واشتعال الثورة في تونس قائمة على انتحار «بوعزيزي التونسي» نتيجة ما تعرض له من قهر من السلطة عندما قامت جهة مسؤولة بمصادرة عربة الفاكهة التي كان يعمل عليها وصفعه، وحينما حاول رد كرامته امتهنت كرامته أكثر؛ ما أشعره بفقدان المعنى من الحياة وفقدانه إنسانيته لفقدانه كرامته وشعوره بالضيق في ظل حالة اقتصادية طاحنة فأشعل النار في نفسه وأشعل الثورة في بلده وامتدت شرارتها إلى بقية الدول العربية، كان بوعزيزي و«خالد سعيد» الذي لقي مصرعه على أيدي أجهزة الأمن المصرية شرارتي ثورات الربيع العربي، ولكن لا يمكن إغفال عنصر آخر وهو أن الشعوب والمجتمعات العربية بكل الظلم والاستبداد الذي كانت تعانيه كان لديها الاستعدادات النفسية والمجتمعية من ظلم وقهر وتدني قيمة المواطن وأغلب العوامل المهيئة للثورة.

وكان الشباب هم من تصدروا ثورات الربيع العربي لوقف القمع والاستبداد واسترداد حقوقهم التي اكتشفوا بمقتل بوعزيزي وخالد سعيد أنها لهم، وأن عليهم أن يبذلوا في سبيلها أي ثمن ليستردوها، لكن هذه الثورات أجهضت بعد مدة لأسباب موضوعية أو خارجية، أو انقلبت إلى حروب أهلية تسببت في مزيد من القمع والاستبداد، وساء الأمر أكثر مما كان عليه قبل اندلاعها.

وأصبح الانتحار حلاً لبعض الشباب نتيجة لفقدانه المعنى من حياته وغايته، وفي مصر كان انتحار «زينب المهدي» فاجعة لشباب الثوار؛ لأنها عانت من سؤال الجدوى عن كل ما حدث ويحدث، ولما لم تجد إجابة وجدت أن الرحيل ربما يساعد في وقف تلك اللاجدوى، لينتحر بعدها العديد من الشباب، منهم «شريف

^{٢٧} بوسنة عبد الوافي زهير: التصور الاجتماعي لظاهرة الانتحار لدى الطالب الجامعي، رسالة دكتوراه، الجزائر، جامعة منتوري- قسنطينة- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٨.



قمر» الشاب بكلية الطب والذي انتحر بعد بثه لفيديو عن الانتحار يتحدث فيه عن غربته عن المجتمع بصورة غير مباشرة، ويوجز أي محاولة لمساعدته في تخطي اكتئابيه أنها محض فضول مُقنَّع بالاهتمام، ثم نجد بعدها انتشار ظاهرة الانتحار في محطات المترو وغيرها من الطرق التي انتشرت بعد تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية الأخيرة.

وهكذا نجد الانتحار باعتباره ظاهرة اجتماعية نفسية مرتبطاً بفقد الانتماء والشعور بالهزيمة النفسية بعد الثورات العربية، ورغم أن ظاهرة الانتحار تتعلق بتركيب نفسي داخل شخص المنتحر إلا أن ذلك لا ينفي دور التغييرات المجتمعية في التفاعل مع التركيب النفسي للشخص الذي يمتلك استعداداً للانتحار ليُقبل على ذلك الفعل، فعند «دوركايم» لا يرجع الانتحار للمزاج الفردي ولا يوغل في النسق المجتمعي فحسب، بل يخضع لعوامل أخرى جانبية تؤثر على الإنسان، وهي متعلقة بطريقة تعاطي الإنسان مع مجتمعه والموقع الذي ينتمي إليه داخل المجتمع. في حديث أحد الشباب في الفيلم الوثائقي «في سبع سنين» الذي كان يتكلم عن انتماؤه للثورة المسلحة ضد الظلم والاستبداد في مكان ما، لكنه بعد انضمامه لم يجد ما كان يبحث عنه من مقاومة للظلم والاستبداد والوصول للمعنى الذي كان يتصوره في داخله، وعندما سئل عن سبب عدم تركه لما هو فيه ما دام أنه لا يحقق المعنى القائم بداخله، أجاب أنه: لا مجال للرجوع إلى مجتمعه القديم؛ لأنه لن يُقبل ولن يجد الانتماء من جديد بل سيجد القمع والنبذ وربما القتل.

(٣) الإلحاد:

لا شك أن للإلحاد أنواعاً مختلفة، وسبب اختلافها هو اختلاف الأسباب المؤدية بالشخص لأن يكون ملحدًا، فهناك إلحادٌ مطلق وهو إنكارٌ للألوهية وما يتفرع عنها من رسل ورسالات، وهناك ما هو أقل منه وهو الإلحاد الجزئي وهو أن يعترف الشخص بوجود إله خالقٍ مع إنكار تصرفه وسيطرته على شئون البشر، وثمة أنواع أخرى، مثل: إلحاد اللاقدرية والعدمية، وهناك الإلحاد العابر ويحدث في مرحلة من مراحل العمر خصوصاً في فئة المراهقة والشباب، وهناك إلحاد الباحث عن اليقين، وهناك الإلحاد الانتقامي ويكون هذا النوع من الإلحاد موجهاً ضد رمز أو رموز أو ممارسات دينية مرفوضة من قبل شخص الملحد، وهناك الإلحاد التمردى وهو الذي يحدث كنوع من التمرد على السلطة أيًا كان نوعها^{٢٨}.

في موضوع دراستنا يهنا أن نسلط الضوء على الإلحاد العدمي؛ وهو المتعلق باليأس من عدالة الأرض والسماء والشعور باللاجدوى؛ لأن هذا النوع هو الذي ظهر بكثرة بعد ثورات الربيع العربي، لشعور الثوار بلاجدوى ما فعلوه وبذلوه، وبعضهم زاد عنده هذا الشعور فصار يحس بعدم جدوى حياته وأنها فاقدة للهدف والمعنى، ويتمثل إلحاد العدمية وفقد المعنى الذي عانى منه شباب الربيع العربي في «معضلة الشر والمعاناة»، ولماذا يحدث كل ذلك الظلم وما الغاية منه، مما دفع ببعضهم في السقوط في بئر اليأس ولجأ إلى إنكار وجود الإله كحيلة نفسية دفاعية ضد شعوره بالمسئولية عن ذلك الشر والظلم الذي يحدث.

والمعاناة في رأي «وليام كريج» وإن كانت تشكك على المستوى السطحي في وجود الله؛ إلا إنها على مستوى الأعمق تثبت وجوده؛ إذ إنه في غياب الله لا تمثل المعاناة شيئاً قبيحاً، فإذا آمن الملحد أن المعاناة

^{٢٨} عمرو شريف: الإلحاد مشكلة نفسية، القاهرة، فرست بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص ١٠.



أمر سيئ، أي أنها لا ينبغي أن تكون، فهو بذلك يقدم أحكاماً أخلاقية لا يمكن أن توجد إلا إذا وجد الله^{٢١}، ووفق الدراسات والإحصاءات ففي السنوات الأربع الماضية شهد الإلحاد نشاطاً كبيراً، وظهرت الكثير من المواقع التي تروج للإلحاد وتدافع عن الملحدين، وهذا لا يتماشى مع الأرقام الضئيلة لأعداد الملحدين الذين أحصتهم جهات مختصة في الدولة، وأشار مفتى الديار المصرية إلى تلك الأعداد نقلاً عن مركز «ريديسي» التابع لمعهد جلوبال، والذي يبدو أنه راعى حرص الدول العربية على عدم الإعلان عن أعداد الملاحدة الحقيقية.

وتأتي أهم الدوافع النفسية للإلحاد أن يكون الإلحاد عصابياً، ف وراء الإلحاد قد يكمن نوع من الخلل النفسي الذي يؤدي إلى تبني الإلحاد على المستوى الفردي، وقد أثبتت دراسات أجراها أستاذ الطب النفسي «بول فيتز» على كبار ملحدي العصر الحديث، أن الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسي عصابي، تقف وراءه رغبة في اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله كما يقول «فرويد»، وطرح «بول فيتز» مفهوماً أسماه «منظور التقصير الأبوي» وفي هذا المفهوم يربط بين رفض سيطرة الأب البشري ورفض سلطة الإله الذي في السماء.

كما أن هناك بعض حالات الإلحاد يكون سببها اضطرابات الشخصية، مثل «اضطراب الشخصية الحدية» وهي شخصية متقلبة في مشاعرها وعلاقاتها وإنجازاتها ومعتقداتها، وتتميز بالاندفاعية وإيذاء الذات والملل المستمر، وبهذا قد نجد صاحب هذه الشخصية يتقلب في معتقداته الدينية، فأحياناً قد تجده متطرفاً دينياً وأحياناً يكون علمانياً أو ملحداً، وهذا راجع إلى أن أبرز سمات هذا الاضطراب هو الانتقال من الشيء إلى نقيضه التام، وأيضاً مثل «اضطراب الشخصية البارانونية» ويتسم صاحبها بالاستعلاء وسوء الظن والشك في الآخرين واحتقارهم واحتقار معتقداتهم، واستعلائه على العامة ورغبته في سلك طريق خاص يتفرد به، كما قد يستعلي على الإيمان وفكرة الإله والرب.

وهناك أيضاً «اضطراب الشخصية النرجسية»: وهي شخصية استعراضية تميل إلى المخالفة لجذب الاهتمام ونيل الشهرة والتمركز حول الذات؛ لذلك فقد يرغب أصحاب تلك الشخصية في إعلان الإلحاد للتباهي بذلك ووضع صورهم على صفحات الإنترنت، ويرغبون في الدخول في مناقشات وجدالات تضعهم تحت الأضواء دائماً، وقد تتسبب بعض الأمراض النفسية واضطرابات التوافق في التغيير في أفكار الشخص ومشاعره وعلاقاته بالآخر والحياة، وقد تجعله يتوجه إلى اعتناق أفكار مخالفة لعموم الناس، وقد تؤدي أيضاً إلى تطرف صاحبها دينياً كنوع من أنواع الدفاع النفسي ضد التفكك والقلق والخوف؛ لذلك يجب التفرقة بين أنماط الإلحاد ومستوياته المختلفة، ودراسة كل حالة بشكل منفرد لنراعي الدوافع الكامنة وراء إلحاد كل شخص، ولا يغرينا وجود عوامل مشتركة بأن نعمم الأحكام على الجميع^{٢٠}.

يتهم علماء الاجتماع وعلماء النفس «السياسة» بأنها مسئولة مسئولة مباشرة عن انتشار ظاهرة الإلحاد خصوصاً في مصر والوطن العربي في الفترة الأخيرة، وذلك بعد اندلاع بثورات الربيع العربي، فالبلدان التي قامت بها تلك الثورات هي أكثر الأماكن التي أصيبت بظاهرة الإلحاد مؤخراً، وبخاصة في ظل تعثر تلك الثورات التي أجهضت وقمعت من قبل جهات معينة أو نظم قديمة فاسدة ظهرت بأشكال جديدة، وهو ما جعل

^{٢١} سامح عودة: «لماذا ينتشر الإلحاد .. أبرز الدوافع النفسية الخفية»، موقع ميدان، (<https://bit.ly/310Srw0>)، تاريخ النشر: ٢٦ يوليو ٢٠١٧، تاريخ الدخول: ٦ مارس ٢٠١٩.

^{٢٠} عمرو شريف: الإلحاد مشكلة نفسية، مرجع سابق، ص ١٢-١٣.



الشباب يكفرون بقيم مثل الحرية والكرامة الإنسانية وإمكانية تغيير مجتمعاتهم إلى الأفضل، فهم قاموا بثورات وقدموا الشهداء وفي النهاية سرقت أحلامهم؛ لذا وقع بعضهم في التمرد والكفر بكل شيء^{٣١}.

ويظهر الإلحاد كظاهرة اجتماعية واسعة الانتشار في العالم، فبعد أن اتجه الغرب نحو العلم لاكتشاف المجهول، وأصبح العقل المادي وسيلتهم الوحيدة لمعرفة الوجود والإجابة على أي أسئلة تتعلق بالغاية من الوجود والحياة مما أدى إلى انتشار النظرة المادية التي كانت من أكبر أسباب الإلحاد كظاهرة عالمية، فعندما يتعرض الإنسان لأزمات وجودية ولا يجد إجابة لدى العقل المادي الذي آمن به؛ فإنه يفقد معنى وجوده ويقع فريسة لحالة من الإحباط الوجودي^{٣٢}.

ومع كل ما تقدم، لا يمكن حصر الإلحاد كرد فعل على فشل ثورات أو حدوث كوارث أو العيش في مجتمع مادي فقط، أو حصر ظاهرة الإلحاد في أنه نتاج للمشكلات النفسية، فكل ما تقدم قد يكون سبباً في الإلحاد بالفعل، لكنه لا ينفي عن شخص الملحد أن له حرية المعنى الذي يتخذه من حياته ومعاناته، وإرادة المعنى التي تتمثل في تحمله لمسئولية اختياراته كما ذكرنا سابقاً أثناء الحديث عن الإحباط الوجودي وتحمل المسؤولية.

خاتمة:

يبحث الإنسان عن المعنى من حياته منذ إدراكه للحياة بطبيعتها وأحداثها، وشعوره بأنه هو المسئول الأول والأخير عن مصير نفسه، ولكن شراسة البحث عن معنى من حياته تزداد في الحالات التي يشعر فيها أن حياته أوشكت على الانتهاء، كالحروب والكوارث وصراعات ما بعد فشل الثورات والمعاناة المترتبة عليها، فيصبح وقتها صراعه على مستويين، فهو لا يجد أمانه المادي ولا أمانه النفسي والمعنوي؛ لأنه لا يجد معنى لذاته ولحياته بعد فقدانه إياه نتيجة المعاناة، فيقع بذلك في براثن الاكتئاب أو الإحباط الوجودي، وكما ذكرنا في الدراسة أن هذا الاكتئاب يكون بسبب شعور الفرد بفشله في تحقيق المعنى من مشروع وجوده كإنسان نتيجة لإحباطات خارجية تعرض لها.

وفي دراسة لـ«الأعرجي» يتوصل فيها إلى أن فقدان المعنى أحد أبرز المخاوف الوجودية التي تهدد إنسان هذا العصر، حتى إنه بات مرضاً جماهيرياً، فعندما يخفق الإنسان في إرادة المعنى؛ تصبح حياته بلا معنى واضح، فلا يشعر بالحماس لإنجاز أي عمل، ولا تبدو له رسالة واضحة في الحياة عليه تأديتها، وإنما ينتقل من يوم إلى آخر في نظام روتيني ممل، ووفق علماء النفس الوجوديين يحدث الإحباط الوجودي نتيجة لسببين كما أسلفنا في الدراسة: أولهما؛ عند ازدياد الضغوط والأزمات في حياة الإنسان بشكل يجعله عاجزاً أمامها عن فعل أي شيء، والثاني؛ عندما تصبح البيئة المحيطة بالإنسان رتيبة بشكل يجعله عاجزاً عن إثارة أي دافع لإرادة المعنى وعيش الحياة.

وهذه المشاعر من شأنها أن تؤدّد لدى الإنسان انعكاسات خطيرة وسلبية على شخصيته وصحته النفسية والجسمية، فقد تؤدي إلى حالات الاكتئاب الشديد، أو إلى رغبة عارمة في إيذاء النفس أو الآخرين، أو تعاطي

^{٣١} المرجع السابق، ص ١١-١٢.

^{٣٢} المرجع السابق، ص ٢١٩.



الكحوليات والمخدرات والإدمان عليه؛ لكي ينسى ذلك الشعور بالخواء الداخلي، أو إلى الأداء السلبي في العمل وفقدان الدافعية له، وفي بعض الأحيان تقوده إلى الانتحار، وإذا كان الدين من أهم مصادر المعنى لدى الإنسان، فإن فقدان المعنى يترتب عليه ردود فعل شاذة تجاه التدين سواء بالتطرف أو الإلحاد^{٣٣}.

وحيث ننظر إلى الواقع نجد أن كثيراً من من شباب الربيع العربي أصابته تلك الحالة من الإحباط الناجم عن الصدمات التي حدثت بعد فشل ثورته، واعتبرها عدواناً موجهاً ضد ذاته فبدأ في عقاب نفسه بدلاً من عقاب جلاده، ونجد صورة لعدوانه المكبوت تتمثل في شعوره بالاغتراب النفسي وانعزاله النفسي عن المجتمع الذي أحبط آماله، ففقد نتيجة لذلك انتماؤه له، وباتت أفكاره ومشاعره واتجاهاته إما مخالفة للمجتمع كنوع من التمرد، وإما راضخة مسايرة كنوع من التبلد تجاه الشعور بالاغتراب النفسي الذي يعانيه.

كما نجد أن بعضهم ظهر عدوانه المكبوت الموجه ضد ذاته بقتل نفسه حتى يُنهي شعوره بالألم واللاجدوى، ظناً بأن ذلك قد ينهي الصراع المشتعل بداخله، ونجد صورة أخرى من صور العدوان المكبوت الناتج عن فقد المعنى يتجه نحو القيم التي يحيا الإنسان بها ومن أجلها، فيتجه إلى الإلحاد وإنكار القيم الوجودية الكبرى، ويبقى السؤال: ما دام أن كل هذه النتائج النفسية ناتجة عن الغضب المشتعل المكبوت داخل شباب الربيع العربي، ماذا لو تأزم الوضع أكثر؟ ماذا قد يحدث لذلك الغضب المكبوت؟ وهل من سبيل لكي تفرغ طاقة العدوان تلك والشعور باللاجدوى والغضب المكبوت المشتعل إلى الخارج بدلاً من أن تجعلهم يتأكلون من داخلهم؟!

^{٣٣} إبراهيم مرتضى إبراهيم: فقدان المعنى وعلاقته بالتوجه الديني .. نمط الاستجابات المتطرفة لدى طلبة جامعة بغداد، رسالة ماجستير، العراق، جامعة بغداد، ٢٠٠٥.

صدر عام 2019 عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر
الآراء الواردة بالدراسة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر المركز، ويمنع نقل هذه الدراسة أو
نسخها أو ترجمتها أو أي جزء منها إلا بإذن مسبق من المركز

info@arkan-srp.com



أركان للدراسات والأبحاث والنشر

Arkan for Studies Research and Publishing